تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

تُعَـدُّ قضيـة «**مداخـل العلوم**» ركيزةً أساسـيةً في بناء المعرفة، وركنًـا مركزيًّا في أي مشـروع تعليمـي يهـدف إلـى تأسـيس قاعدة متينـة للبحـث العلمي. فمن خـلال هذه المداخل، يُتاح للطالب والباحث السَّيْر على نهج تدرُّجي متكامل، يراعي طبيعة العقل البشري في الانتقال من البسيط إلى المركَّب، ومن المعلوم إلى المجهول. ولا يقتصر دور هذه المداخل على تسهيل استيعاب العلوم، بل يتجاوز ذلك إلى تقديم رؤية شاملة للدارس، ينكشف له بها جوهر العلم، فيدرك أصوله، ويطلع على مناهجه، ويستوعب تاريخه وأصوله.

وقـد هُدي الفكر العلمي الإسـلامي منذ بواكيره الأولـى حتى العصر الحديث إلى النظر في مسائل «سُلَّم العلوم» و«مراتب التحصيل» و«التدرج في الطلب» أثناء عنايته بمناهـج البحـث والتأليـف، والوقـوف علـى أسـرار التصانيـف، فأنتـج المقدمـات، والممهـدات، والمتـون، والمختصرات، وصاغ «المبادئ العشـرة للفنون» التي مثَّلت إطـارًا ناظمًا تأسيسـيًّا لكل علم، بدءًا من تعريف العلم، وموضوعه، وثمرته، ونسـبته، مرورًا بواضعه، واسمه، واستمداده، وانتهاءً بحكمه، ومسائله، والغرض من دراسته.

وفي هذا السياق، يُقدِّم **مركز نهوض للدراسات والبحوث** سلسلة «**مداخل منهجية في العلوم الإسلامية**» استئنافًا واستدراكًا: استئنافًا للخبرة المسلمة في العناية بالمقدمات والممهدات، واسـتدراكًا للمشـكلات المتعدِّدة التي تضجُّ بها مداخل العلوم الشرعية اليـوم، مـن غياب المنهج الواضـح، وضعف المحتوى العلمـي، وافتقارها إلى العمق التحليلي والوعي النقدي. مما يجعل الحاجة ملحَّة لتطوير هذه المداخل بحيث تُقدِّم تصورًا كليًّا عن العلوم الإسلامية، وتُبرز أبعادها التاريخية والفلسفية، مع التركيز على أهمية منهجية الدراسة في ضبط العلوم وتماسكها.

يأتـي هذا المشـروع اسـتجابةً لهذه التحديـات، قاصدًا إلى تقديـم مداخل تحليلية للعلوم الإسـلامية الكبرى، كعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول، مبنية على رؤية

منهجية شاملة، تقف على الأبعاد التكوينية والتاريخية والبنيوية التي شكَّلت مساراتها عبر الزمن، جامعةً بين التأصيل النظري والتحليل النقدي، فلا تقتصر على إعادة سرد تاريخ العلوم الإسلامية، بل تسعى إلى تحليل الأنظمة المعرفية التي أسَّستها، واستكشاف نقاط القوة والضعف فيها، مما يفتح آفاقًا جديدة أمام الباحثين لطرح أسئلة إبداعية ومقاربات مبتكرة: كيف نشأت هذه العلوم؟ وكيف تطورت؟ وما مناهجها الأساسية؟ وكيف يمكن الاستفادة من تاريخ هذه العلوم ومناهجها في تطويرها؟

ينطلق هذا المشروع من يقينٍ بأن العلوم الإسلامية ليست مجرَّد تراكمات تراثية، بل منظومة حيَّة تجمع بين الوحي والاجتهاد، وتستدعي تجديدًا منهجيًّا يعيد وصلها بالواقع. ويسعى المشروع إلى بناء جسور بين العلوم الإسلامية والإنسانية، مستعينًا بأدوات معرفية حديثة، كفلسفة العلوم وعلم اجتماع المعرفة، لإحياء روح الاجتهاد، وإبراز قدرة هذه العلوم على مواكبة تحديات العصر. كما يهدف المشروع إلى سدِّ الفجوة بين المنهج التقليدي الذي يركِّز على حفظ المتون والمختصرات، وبين المنهج الحديث الذي يتطلب فهمًا شاملًا للعلم بأبعاده الفكرية والمنهجية.

وكذلك يروم هذا المشروع أن يكون إضافة نوعية للمكتبة العربية والإسلامية، بحيث لا ينحصر في نطاق الأكاديمية، بل يتسع ليشمل عموم المهتمين بالثقافة والفكر الإسلامي، سواء كانوا متخصصين أو غير متخصصين، ليكون أداةً لتعزيز الوعي المنهجي، ومفتاحًا لفهم أكثر عمقًا وشموليةً لتراثنا المعرفي.

ومركز نهوض للدراسات والبحوث إذ يقدِّم هذا المشروع، فإنه يعقد الأمل أن يكون منطلقًا لحراك علمي جديد يعيد للعلوم الإسلامية حضورها الفاعل في الساحة العلمية والمعرفية، وأن يجسر الهوة بينها وبين مستجدات العصر ونوازله، وأن يشكِّل لبنةً راسخةً في بناء البحث العلمي الشرعي، وأن يكون إسهامًا جادًّا في فتح آفاق رحبة أمام الباحثين والمهتمين عبر مداخل منهجية دقيقة ومتكاملة، وأن يكمل مسيرة التميُّز التي حقَّقتها سلسلة «**مداخل منهجية في العلوم الإنسانية**» الذي أطلقه المركز سابقًا.

ويأتي هذا **الكتاب الثاني** من **سلسلة «مداخل منهجية في العلوم الإسلامية»** بعنوان «**مدخل إلى علم الحديث**» من تأليف **جوناثان براون**، حاملًا معه تساؤلًا لا بدَّ أن يتبادر إلى الأذهان في معرض تقديم الكتاب: هل ثمة حاجة حقًّا اليوم إلى أن يُكتَب مدخل

منهجيٌّ في علم الحديث؟ أليس في الكتب التراثية التي قدَّمت «علم المصطلح» كفاية وزيادة؟

فمنذ «**نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر**» للحافظ ابن حجر العسقلاني، استقرت كتابة ما يمكن أن نسميه بالمداخل المنهجية في علوم الحديث في صيغة منتظمة، لها محددات ومفاهيم، وأدوات إجرائية. وليس من المبالغة القولُ إن تلك الكتب جعلت من هذا الصنف من العلوم الإسلامية أكثرها انتظامًا ودقَّة من حيث المنهج. لكن على الرغم من قيمة تلك المنظومة، فهي أشبه ما تكون بتوصيفٍ شكليٍّ لذلك العلم، دونما إشارة إلى تكوينه التاريخي، والإشكالات التي تفاعل معها علماء مصطلح الحديث.

وليس هذا نقدًا **لنخبة الفكر** وللكتب التي صيغت على منواله، فمعلوم أن ابن حجر لم يقصد بكتابه هذا أن يؤرخ للتكوين التاريخي لعلم الحديث، وإنما كان مقصوده هو اختصار محددات بنية هذا العلم من خلال تبويب مكوناته وترتيبها، فأوجز وأجاد. وقد كان بذلك رائدًا سبَّاقًا، فإن ما كُتِبَ قبله (الرامهرمزي في «**المحدث الفاصل بين الراوي والواعي**»، والحاكم النيسابوري في «**معرفة علوم الحديث**»، والخطيب البغدادي في «**الكفاية في علم الرواية**») كان نظرات متفرقة غير مرتَّبة، فلم يستقل عندهم «علم المصطلح» بِوَصْفٍ مُرَتَّبٍ لبنيته المنهجية. صحيح أن «**مقدمة ابن الصلاح**» كانت خطوةً نوعيةً في سبيل الاستقلال بعلم الحديث، لكن كتابه هذا أيضًا -كما يقول ابن حجر- «لم يحصل ترتيبه على الوضع المتناسب»، ومن ثَمَّ لم يُجسَّد ذلك الترتيب المنهجي فعليًّا إلا مع كتاب الحافظ ابن حجر، الذي جاء فريدًا في نظامه. وهو ما كان ابن حجر مدركًا لجدَّته، فقال واصفًا كتابه بأنه جاء «على ترتيب ابتكرته، وسبيل انتهجته».

ومع ذلك، فإن كتب المصطلح -التي تُعَدُّ «المداخل المنهجية» المعتمدة للتعريف بعلم الحديث حتى الآن- لا تزال في أغلبها منتظمةً على تلك البنية التي أوجزها ابن حجر. وفي مقابل ذلك نلحظ أن الكتب النقدية التي تروم نقد علم الحديث غالبًا ما تقع في نفيٍ متطرفٍ لقيمة هذا العلم ونتاجه، من حيث الإشارة إلى الشروط التاريخية لتكوينه. وبالنظر إلى هذا وذاك، تبدو الحاجة ماسة إلى مدخل منهجي جديد، في رؤيته وأدواته، يُعرِّف بعلم الحديث، من حيث هو «بنية»، مع استحضار شروط تكوينه وبيان السياق التاريخي والثقافي لتشكيله.

وهذا اللحاظ حاضر إلى حدٍّ ما في كتاب جوناثان براون الذي نقدم له؛ إذ يستهلُّ بالإشارة إلى أن جمع الأحاديث لم يتم خلال حياة النبي ﷺ، بل جرى لاحقًا. وباستحضار شرط التاريخ، يلاحظ أن المجتمع المسلم شهد «في القرن الذي تلا بعثة النبي ﷺ ما لا يقلُّ عن ثلاث حروب أهليَّة» نتجت عنها انقساماتٌ في الجسم الإسلامي، فتوزَّع إلى طوائف متنافرة متنازعة. فشاع «الوضع» نتيجةً لذلك، فتصدَّى المحدثون إلى النظر في الأحاديث لكشف «الصحيح» وتمييزه من الضعيف والموضوع، مما أدى إلى تقعيد تقنيات دقيقة في تحقيق المروي الحديثي إسنادًا ومتنًا.

وتتبعًا لهذا التقعيد، وبيانًا لمجالاته، يكتب جوناثان بروان مدخله المنهجي هذا، الذي لم يقتصر فيه على التعريف بمفاهيم علم المصطلح ومحدداته، بل أضاف قراءة تاريخية وتطبيقية، في مجالات الفقه والأصول والعقيدة والتصوف والسياسة، فجاء كتابه فريدًا في نهجه، وشاملًا في أبوابه.

كما خصَّص فصلًا كاملًا (الفصل التاسع) لمناقشة «سؤال الموثوقية»، الذي أطلقته الكتابات الاستشراقية التي شكَّكت في موثوقية الأحاديث النبوية. ثم أتبعه بفصل عاشر تعرض فيه لمناقشة السجال حول الحديث النبوي في العالم الإسلامي الحديث.

ويشير براون إلى أن قيمة «الإرث النبوي» لا تبدو فقط في كونه «بيانًا عمليًّا» للقرآن الكريم، بل إن فهم كيفية انتشار رسالة الإسلام، والنواحي الفقهية والعقدية والروحية والثقافية المختلفة للحضارة الإسلامية، يستلزم دراسة ذلك الإرث ابتداءً. ومن ثَمَّ فالاهتمام بعلم الحديث ليس مجرَّد اشتغال على علم تقني منهجي، بل هو مدخل ضروري إلى فهم الإسلام والمجتمع الإسلامي.

ومركز نهوض للدراسات والبحوث إذ يُقدِّم هذا الكتاب الثاني من سلسلة «**مداخل منهجية في العلوم الإسلامية**»، ليرجو أن يكون قد سَدَّ ثغرةً مهمةً ولبَّى حاجةً مُلِحَّةً إلى هذا النوع من المداخل، وأن يُسهم هذا الكتاب وغيره من كتب السلسلة في ترقية المستوى المعرفي لطلبة الجامعات العربية في مجالي العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، على نحوٍ يجاوز الانفصال السائد، وتمكينهم من الأصول والأدوات المنهجية التي بلورها العلم موضوع التعريف.